"الشاعر واللغة " للشاعرة العراقية نازك الملائكة
دراسة وتحليل

أ. م. د. هناء البياتي
قسم الترجمة
كلية الآداب
جامعة البصرة
2014-2013

المقدمة:

يهدف البحث ألتأكيد على سلامة اللغة العربية وأساليب الحفاظ عليها من خلال دراستنا لمحاضرة ألقتها الشاعرة العراقية نازك الملائكة في جامعة الكويت عام 1974, نشرت فيما بعد في كتابها "سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى" عام 1993. يتناول الفصل الأول من هذا الكتاب محاضرة نازك المعنونة" الشاعر واللغة" وعلاقة الشاعر العربي بلغته العربية الفصحى من خلال فقرات عدة قدمتها نازك الملائكة في هذا الفصل. وفي بحثنا هذا قسمنا هذه الفقرات على سبعة مباحث. في المبحث الأول "مكانة اللغة العربية الفصحى " تناولنا تعريف اللغة كمصطلح, وأهمية اللغة العربية الفصحى عند الله وعند المتحدثين بها والباحثين فيها, وأسباب اختيار الله لها كي تكون لغة القران الكريم. وفي المبحث الثاني" تعريف نازك البلاغي للغة العربية الفصحى" ناقشنا هذا التعريف وأعطينا قائمة بالمقارنات المجازية التي عقدتها من خلال تعريفها للغة العربية, مستخدمة أسلوب التشبيه بشكل خاص والذي تفوق على بقية الأساليب البلاغية من استعارة وكناية ومجاز مرسل. وفي المبحث الثالث"علاقة الشاعر بلغته" سلطنا الضوء على موضوع علاقة الشاعر العربي بلغته العربية الفصحى التي توصفها الشاعرة نازك الملائكة بالعلاقة أو الرابطة الخفية التي تجعل الشاعر أوثق اتصالا باللغة. وتهاجم نازك التيارات الأدبية التي تطالب بنبذ العناية باللغة العربية الفصحى لأنها كما تدعي هذه التيارات إن اللغة العربية الفصحى تضيق على الشاعر المعاصر وتقيد حريته في

التعبير. أما المبحث الرابع "بين العامية والفصحى" فيتناول موقف نازك من اللغة العربية الفصحى والعامية. فبعد أن تعطي تعريفا للغة الفصحى وتعريفا آخرا للعامية تهاجم نازك الدعوات التي أطلقها مجموعة من الكتاب في الوطن العربي لتشجيع العامية من باب التسامح اللغوي . في هذا المبحث ناقشنا موقف نازك من دعوة ميخائيل نعيمة في كتابه " الغربال" في تشجيعه العامية والتي تراجع عنها فيما, والمحاذير من النتائج الخطيرة عند إتباع أصحاب هذا المذهب. أما المبحث الخامس"القافية الموحدة والقافية المتغيرة" الذي يتناول أهمية القافية عند الشاعرة نازك الملائكة والتي تعدها من أهم جوانب العلاقة السايكولوجية بين الشاعر ولغته, والأسباب التي جعلت العربي القديم يحرص عليها في الشعر ويستخدمها في النثر بصورة السجع. وعلى الرغم من قصر هذا المبحث بسبب تكريس نازك فصلين آخرين بعد هذا الفصل تتحدث فيهما بإسهاب عن أهمية القافية وأنواعها وأسباب حرص الشعراء العرب القدامى عليها وعزوف الشعراء المحدثين عنها. أخذنا من هذين الفصلين بعض الاقتباسات لمناقشة موقف نازك من القافية الموحدة والمتغيرة وعدم استخدامها في الشعر العربي الحديث. أما المبحث السادس "الغموض في لغة الشعر ولغة النثر" فتناولنا فيه موضوع الغموض في الشعر والنثر فالشاعرة نازك تؤيد بعض الغموض في لغة الشعر والوضوح في لغة النثر, رغم إن الكثير من شعرها الرمزي والأسطوري مفعم بالغموض, حتى أنها تضطر أحيانا لتقديم قائمة لتوضيح الأسماء الغريبة على القارئ العربي. ويختتم المبحث السابع هذا البحث. ولهذا المبحث علاقة وطيدة بالمبحث الأول والثالث وكان بإمكاننا أن ندمجه مع أي منهما, إلا إننا ارتأينا أن نختتم به بحثنا كي يكون قريبا من توصياتنا ومقترحاتنا لتطوير لغتنا العربية والمحافظة على سلامتها. في هذا المبحث ناقشنا رأي نازك بالمتحدث باللغة العربية الفصحى الذي لا يشعر بالألم عندما يخطأ لأنه, كما تعده نازك, جاهل وهو في مرتبة دنيئة من مراتب العقل. ولكي نعزز نقاشنا في هذا المبحث اقتبسنا من كتاب نازك الملائكة " التجزيئية في الوطن العربي" الذي نشره المجلس الأعلى والذي ظهر في الجزء الثاني من عمل ضخم بجزأين, شمل جميع الأعمال النثرية للشاعرة العراقية نازك الملائكة, بعنوان "نازك الملائكة: الأعمال النثرية الكاملة", اقتبسنا بعض السطور التي توضح موقف نازك من الخطأ في اللغة العربية الفصحى, والأسباب الرئيسة التي ساهمت في انتشار الأخطاء في اللغة. وهي الترجمات الركيكة إلى اللغة العربية التي كان يشجعها الاستعمار لإضعاف لغتنا العربية, كما تعتقد. وبينا موقفنا من

تصريح نازك العاطفي غير المقنع هذا, والذي ينبع من شدة كرهها للمستعمر. ورأينا إن الاستعمار لا يستفيد من ترجمة أعماله الفكرية ترجمة ركيكة, فهو يحرص كل الحرص أن تظهر حضارته في الأعمال الفكرية المترجمة إلى لغات العالم بصورة مشرقة كي تستطيع هذه الأعمال التأثير على الحضارات الأخرى. وفي نهاية الفصل, تعترف نازك بأن الترجمات الركيكة التي أثرت تأثيرا سلبيا على لغتنا العربية ليست جميعا قد صدرت بنية سيئة فبعضها جاء نتيجة الجهل باللغة والتراث وهذا هو رأينا أيضا. وفي الخاتمة ركزنا على المواقف المتناقضة للشاعرة العراقية نازك الملائكة في بعض تصريحاتها التي تنادي بعدم التسامح مع الخطأ اللغوي وهي غير معصومة من هذا الخطأ, وهي لا تحب الغموض في الشعر وشعرها مفعم بالغموض, وهي كذلك تنادي بالتحدث باللغة العربية الفصحى في جميع مجالات الحياة وهي لا تتحدث بها خارج نطاق الأجواء الرسمية. وأخيرا اتهامها للمستعمر بتشجيع الترجمات الركيكة في بداية بحثها وتغيير رأيها في نهاية البحث. وبعد استنتاجاتنا هذه قدمنا جملة من المقترحات للمحافظة على سلامة اللغة العربية الفصحى, فضلا عن المقترحات الخمسة التي قدمتها نازك الملائكة في القسم الثالث"بين الأدب والمجتمع" من الجزء الثاني من "نازك الملائكة: الأعمال النثرية الكاملة", في ختام بحثها الأول في هذا القسم "الأدب والغزو الفكري". قدمت نازك هذه المقترحات عام 1965,كما أشارت إلى هذا التاريخ في ذيل المبحث. بعض من هذه المقترحات قد أخذ به في بعض الدول العربية وما زال البعض الآخر ينتظر.

نقدم جهدنا المتواضع هذا ولا ندعي الكمال له, بخاصة عندما يكون هذا البحث العمل النقدي الأول, كما نعتقد, لدراسة وتحليل مقالة نقدية عن "الشاعر واللغة" لشاعرة عراقية مرموقة دخلت تاريخ الأدب العربي الحديث من أوسع أبوابه, وهي الشاعرة العراقية نازك الملائكة. والذي يقودنا إلى التصريح بأن بحثنا هذا المحاولة الأولى لأننا بحثنا في المكتبات وفي النت عن دراسة نقدية متكاملة في هذا الموضوع كي تساعدنا في تعزيز أرائنا النقدية, فلم نوفق في العثور عليها, باستثناء عثورنا بعض الملاحظات النقدية المختصرة في المواقع الألكترونية. هذا البحث يتضمن سبعة مباحث مع مقدمة وخاتمة قدمنا فيها جملة من التوصيات للحفاظ على سلامة اللغة العربية.

1- مكانة اللغة العربية الفصحى:

تتفق المعاجم في جميع لغات العالم على تعريف اللغة بكونها مجموعة من الأفكار والمشاعر في نسق من الأصوات والإيماءات والرموز تستخدمها الشعوب للتواصل و للتعبير عما يجيش في خلجاتها. وترتبط اللغة ارتباطا وثيقا بالتفكير, فأفكار الإنسان تصاغ دوما في قالب لغوي, ومن خلال اللغة تحصل الفكرة على وجودها الواقعي. وتعتبر اللغة أهم وسائل التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة. اللغة هي طريقة من طرق الاتصال البشري. وهي جزء لا يتجزأ من نظام معقد يسمح للتجديد والتغيير والتطور. تلعب اللغة دورا مهما في الحضارة والمجتمع. ولا يستخدم الإنسان اللغة كوسيلة من وسائل الاتصال فحسب بل تعد اللغة بالنسبة له هوية انتساب إلى مجموعة معينة من البشر المنتمين إلى حضارة معينة. وتختلف اللغة باختلاف المكان و الزمان والطبقة الاجتماعية والدينية والعرقية.(1)

للغة العربية مكانة سامية عند الله تعالى وعند محبيها. و قد أختارها الله تعالى لكي تكون لغة القران الكريم لما تمتاز من صفات انفردت بها عن بقية لغات العالم. من هذه الصفات المرونة والاتساع والقدرة على الاشتقاق والنحت والتصريف والمفردات الغنية والصيغ والأوزان. يقول عباس محمود العقاد :"فإذا قيس اللسان العربي بمقاييس علم الألسنة فليس في اللغات لغة أوفى منه بشروط اللغة في ألفاظها، وقواعدها، ويحق لنا أن نعتبر أنها أوفى اللغات جميعها بمقياس بسيط واضح لا خلاف عليه وهو مقياس جهاز النطق في الإنسان، فإن اللغة العربية تستخدم هذا الجهاز الإنساني على أتمه وأحسنه ولا تهمل وظيفة واحدة من وظائفه كما يحدث ذلك في أكثر الأبجديات اللغوية، فلا التباس في حرف من حروفها بين مخرجين، ولا في مخرج من مخارجها بين حرفين.., وقد تشاركها اللغات في بعض هذه المزايا، ولكنها لا تجمعها كما جمعتها، ولا تفوقها في واحدة منها.." (2) وقد أثبتت جميع الدراسات اللغوية إن سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها هو القران الكريم. يقول فيلب دي طرازي: "أصبح المسلمون بقوة القران أمة متوحدة في لغتها ودينها وشريعتها وسياستها ... ولولا القران لظل أهل كل بلد من البلدان التي انضمت للإسلام ينطقون بلهجة يستعجمها أهل البلد الآخر ..."(3) و للغة العربية مكانة عظيمة في نفوس العرب القدامى وحتى الأعاجم أقبلوا عليها بشغف شديد ورغبة قوية على تعلمها فأتقنوها وألفوا في علومها المختلفة المئات

من الكتب في مختلف علوم المعارف. وكان الرسول (ص) يحرص أشد الحرص على سلامة اللغة العربية وإبعادها عن مواطن الانحراف والزلل. حتى يقال أنه عندما لحن رجل بحضرته أعتبر اللحن ضلالا وعلى من يسمع هذا اللحن أن يرشد الملحن إلى الطريق الصحيح :" أرشدوا أخاكم فقد ضل" وقد أدى الإيمان بقدسية العربية الفصحى إلى تجذير قناعات المسلمين بحتمية بقائها على مدى العصور والدهور. وإن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها وسيحفظها على مر الدهور.(4)

بعد أن استعرضنا بشكل موجز في هذا المبحث أهمية اللغة العربية الفصحى عند محبيها, سنسلط الضوء في المباحث التالية على الموضوعات الأساسية التي تناقشها الشاعرة العراقية نازك الملائكة في محاضرتها "الشاعر واللغة", التي ألقتها عام 1974. استمعت إلي هذه المحاضرة في البدء على الشريط الذي أهدتني إياه مكتبة جامعة الكويت في الشويخ عام 1984عندما ذهبت لمقابلة الشاعرة كجزء من متطلبات بحث الدكتوراه المعنون "كيتس وشيللي وبايرون في شعر الشاعرة نازك الملائكة", وقد نشرت هذه المحاضرة فيما بعد على شكل فصل في كتاب بعنوان " نازك الملائكة: سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى" من قبل دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد عام 1993. تبدأ الشاعرة العراقية نازك الملائكة محاضرتها بتعريفها اللغة العربية الفصحى تعريفا بلاغيا وتسلط الضوء على علاقة الشاعر بلغته, وتوضح موقفها من اللغة العربية الفصحى ومن العامية, وتهاجم أنصار استخدام العامية وتعطي أسباب تفضيلها التحدث بالفصحى على التحدث بالعامية, وتناقش نازك المبررات التي قادت هؤلاء إلى التمسك بالعامية, وتحذر من النتائج الخطيرة على اللغة العربية, وتناقش الإشكالات اللغوية للشعر في القرن العشرين, وتتناول مواصفات لغة الشعر كالغموض والاقتضاب والرمزية التي تختتم بها نازك محاضرتها الممتعة, وقبل اختتامها المحاضرة تشير نازك إلى الفرق بين لغة الشاعر ولغة الناثر ودور القافية في الشعر والسجع في النثر. يدرس هذا البحث الموضوعات التي ناقشتها نازك الملائكة في مقالتها "الشاعر واللغة" في المباحث القادمة حسب أهميتها

2- تعريف نازك البلاغي للغة العربية:

أهم ما يميز تعريف نازك للغة العربية هو استخدامها إحدى أساليب البلاغة والبيان ,وهو فن من الفنون الكلامية التي تشكل في علم البيان العربي عنصرا أساسيا من عناصر الإبداع في عملية تكوين الجملة العربية. هذا الأسلوب هو أسلوب التشبيه. وهدف نازك في هذا المسعى البلاغي هو أن يكون تعريفها للغة له تأثير أعمق ومتعة أكبر للمتلقي العربي ومن خلاله تؤكد على قوة اللغة العربية وجمالها, وعبقرية من يتقنها. و بذلك تخفف على المتلقي العربي المتذمر من صعوبة قواعدها وتراكيبها المعقدة. و أغلب صور التشبيه المستخدمة في تعريف نازك للغة العربية الفصحى جاءت بصيغة المبتدأ والخبر, لأنها تريد إخبار المتلقي العربي بأسرار جمال لغته المدفونة في دهاليز خفية. واللغة العربية بسحرها و قوتها وجمالها تشبه الجنية الملهمة والوردة النضرة, وهي بثرائها وتجددها ونموها تشبه الحقل والنبع الخصب, و بمفرداتها الغنية تولد وتنمو وتتطور وتشيخ كالكيان الحي, وهي الروح لهذا الكائن الحي, وهي جزء لا يتجزأ من عناصر الطبيعة, وهي بسعة البحر فمهما أخذنا منها لا تنقص, وهي الفكر والحضارة والرقي للشعوب المتحدثة بها. أما قواعد اللغة العربية فتشبهها نازك الملائكة بالطرق المعبدة في غابة كثيفة موحشة, والخطأ اللغوي بالنسبة لها أشبه بالطريق الوعر الشائك.

وتصنف صور التشبيه عند نازك في هذا الصدد إلى ثلاثة أصناف (فيما يلي قائمة بصور التشبيه التي قدمتها نازك الملائكة في محاضرتها ومقالتها عن "الشاعر واللغة" مع الإشارة إلى رقم الصفحات التي ظهرت فيها هذه الصور في كتابها "سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى"): (5)

أ- صور التشبيه المرئية :التي لها علاقة بعناصر الطبيعة ,أحياء وجماد, التي تعكس إحساس الشاعرة نازك بجمال الطبيعة الذي يضاهي جمال اللغة العربية, وهي كما يلي:

1- الطبيعة:

" وإنما اللغة أشبه بالطبيعة التي تشكل أذهاننا بقوانينها الخفية وتؤثر في عواطفنا وتلون أفكارها وتهبنا الحضارة والفكر" (ص23)

2- الوردة:

"إن اللغة تتفتح كالوردة بين يدي الشاعر..." (ص:11)

3- الحقل:

"والواقع أن اللغة أشبه بحقل فارغ خصب, والشاعر هو الفلاح الموهوب الذي يستنبت منه أشجار الرمان والمشمش والليمون. أما من لا موهبة له فقد تجمد الأرض بين يديه فلا تنبت شيئا" (ص: 11)

4-النبع:

"إن اللغة نبع خصب بين يدي الشاعر, فهو يفيض ويغدق ويتدفق إذا لم يتحسس بأسرارها"(ص: 12)

5- البحر:

"إن الألفاظ التي استعملها القدماء في اللغة العربية لم تستنفذ بالاستعمال, لأن اللغة بطبعها كالبحر, مهما استقينا منها منه فهو لا ينقص," (ص28)

6- كيان حي ومكتمل:

-"اللغة, خلافا لما يتصورون, كيان حي تكمن فيه العواطف وخفايا النفس وألوان الأشياء وعبير الحلم وطعم الوجود. وكلما غيرنا تركيب ألفاظ اللغة منحناها آفاقا جديدة, وأضفينا عليها من أسرار أرواحنا ونبض قلوبنا. والمقصود بهذا أن الإنسان لا يستطيع أن يستنبت الآلة أي شئ, أما اللغة فان فيها سرا. إن لها جمالا يترقرق كما تترقرق حيوية الدم في الخدود وفيها حركة نابضة لا تفتر أبدا." (ص17)

-"وليست اللغة معزولة عن الحياة. إنها حياة الأفراد نفسها." (ص: 23)

-"ولغتنا العربية كيان مكتمل فيه عمق و خفايا وامتدادات وله هيبة واستقلال, وله قوانين فيها سر شخصية اللغة ومنبع جمالها..." (ص:12)

وتشبه نازك قواعد اللغة بالطرق المعبدة:"وتبدو لي القواعد أشبه بطرق معبدة في غابة كثيفة موحشة..." (ص:12) و تقارن الخطأ في اللغة بالطريق المعبد الشائك والبقعة الشوهاء:

1- الطريق المعبد الشائك: "... والخطأ موحشا للقلب الإنساني أشبه بطريق وعر شائك."(ص:12) ,

2- والبقعة الشوهاء على ثوب أبيض جميل:" لأنه قبيح أشبه ببقعة شوهاء على ثوب أبيض جميل."(ص:12)

ب- صور التشبيه غير المرئية: التي تفهم بالإدراك فاللغة العربية بالنسبة لنازك هي العطاء وهي الفكر والحضارة:

1- الفكر والروح:

"أما اللغة فهي الفكر وهي الحضارة وهي الروح. إنها ملك أمة كاملة تعيش بها وتتغذى فكريا وروحيا. واللغة إنما تصاغ أقيستها وفق قانون فلسفي كامن, وهي تهب من عمقها إلى ذلك الذهن الحي الذي يستعملها."(ص:27)

2- العطاء:

"وإنما اللغة عطاء لا ينفذ, وفي وسعها أن تعطي جديدا للعصور كلها." (ص 29)

ج - الصور الأسطورية الخارقة :التي تعبر عن قوة الإلهام في اللغة العربية وتأثيرها الخارق في الفكر البشري وتتمثل هذه القوة الخارقة في صورة الجنية الملهمة والدهاليز الخفية:

1- الجنية الملهمة:

"أنها جينته الملهمة ، في يدها مصدر شاعريته ووحيه، فكلما ازدادت صلته بها وتحسسه لها كشف عن أسرارها المذهلة وفتحت له كنوزها الدفينة." (ص: 10)

2- الدهاليز الخفية:

"بأن كنوز اللغة أشبه بدهاليز خفية دفينة تراكمت فوقها أتربة السنين والقرون." (ص: 10)

تستمر نازك بأسلوبها البلاغي في تعريف اللغة العربية وعلاقة الشاعر الخفية بلغته وهذا ما سنتناوله في المبحث الثالث وسنعود إليها في المباحث التالية بين الحين والآخر . يسلط المبحث التالي الضوء على أسرار هذه العلاقة كما تصرح بها الشاعرة نازك الملائكة, والتي ربما لم يسبر أغوارها القارئ العربي.

3- علاقة الشاعر بلغته:

تبدأ الشاعرة نازك الملائكة محاضرتها ومقالتها عن " الشاعر واللغة" تأكيدها على " وجود رابطة خفية بين الشاعر ولغته التي يستعملها في نظم الشعر، وتلك رابطة يختص بها الشاعر ..."(6) تبوح نازك سر هذا الاختصاص وهو إن الشاعر "أكثر انقيادا واستسلاما إلى اللاوعي اللغوي بسبب ما يملك من إحساس مرهف مشحون وروح محتشد زاحم حتى يكاد الشعر يصبح سلسلة من الرحلات في الأعماق الباطنة للغة يقوم الشاعر بإحداها في كل قصيدة يبدعها حتى تصير القصيدة كيانا له تاريخ وهيكل وأربعة أبعاد."(7) وتقدم نازك الأسباب التي جعلت الشاعر أوثق اتصالاً باللغة وهي: " أن تعبيره موزونُ مقفى. ذلك أن الوزن يستثير في الذهن تاريخاً سحيقاً مطموراً للغة فتنبثق في ذهن الشاعر ألفاظ مفاجئة لم تكن تخطر على باله قبل بدئه بإبداع القصيدة، فكأن ذهنه مفتاح غير واع لأسرار اللغة بحيث تنبعث أبعاد مطموسة سحيقة القدم من تاريخ اللغة المتخفي، وهذه الأبعاد لا يصلها إلا الشاعر. ... ولا بد للشاعر الذي تتوثق صلته باللغة وقوانينها من أن تكون ملكة اللغة قد أصبحت فطرة في نفسه يغرف منها بلا انتهاء، بحيث يبدع الصور والموسيقى ويأتي بأروع الأنغام دون أن يخرج على أسس اللغة وقواعدها."(8) وتصف نازك اللغة بأنها " كنز الشاعر وثروته. أنها جينته الملهمة، في يدها مصدر شاعريته ووحيه، فكلما ازدادت صلته بها وتحسسه لها كشف عن أسرارها المذهلة وفتحت له كنوزها الدفينة. إن كلّ صورة في قصيدة الشاعر يكمن فيها من العوالم ما لا حدود له، والشاعر هو الذي يزيح الأستار عن تلك العوالم الغافية، ويقودنا إلى حيث تلك الكنوز المطلسمة التي حجب حاجز الزمن الكثيف ضياءها وألوانها.(9) إن تعريفَ نازك لغْة الشاعر "بالجنية الملهمةِ" يردد أصداء تعريفها الكلمةَ بالحورية الغافية التي "يخرجها الشاعر من عزلتها لألئا ..." في "الأميرة النائمة":(10)

والكلمةُ

حورية, غافية، منعُمةْ

يُخرجها الشاعُر من عُزلتها لآلئا عذريةَ الأصدافْ

في أبحر بعيدة تائهةِ الضفافْ

ينثرها عرائساً مائية في أفق مفقودْ

وشرفةً مسحورة الأستارِ لم يسمعْ بها الوجودْ
تفتح شباكاً على عوالم الأطيافْ

تصف الشاعرة نازك الملائكة الكلمة في القاموس بالحورية النائمة في أعماق البحار. فالكلمة لها سحر وجمال آسر كجمال الحواري. وهي كاللؤلؤ المخزون بالأصداف في أبحر بعيدة لا يشعر بوجودها حتى يخرجها الشاعر من القاموس ويستعملها في شعره كما يخرج الغواص اللؤلؤ من أعماق البحار. في هذه القصيدة تشبه نازك الكلمة في القاموس بصور مرئية أخرى مستقاة من الطبيعة، فضلا عن الصور التي أشرنا إليها في المبحث السابق. فالكلمة في القاموس تشبه: (الوردة, السوسنة, الزنبقة, البراعم, السنبلة , التفاحة, الأقمار, الشموس, الأجنحة, النهار, شهر آذار, الشتاء) والكلمة بالنسبة لنازك هي"(صبية عذراء, عروس, حورية, أميرة نائمة , جنية), واللغة هي (الفكر والحضارة والروح). (11)

وفي تعليقها عما شاع خلال القرن العشرين (1964-1984) بين أدباء الوطن العربي وهو " أن الغلط في قواعد النحو واللغة مباح كل الإباحة في الشعر، لأن الشاعر- في زعمهم – ليس عالماً باللغة وإنما هو منشد يفصح عن عواطفه بين يدي جمهور يحب الشعر ولا يحب القواعد . قالوا أن القاعدة الجامدة تصرف ذهن الشاعر عن أنغامه وان فيها ثقلاً وبرودة".(12) وتلخص الشاعرة الفكرة التي يدافع عنها هذه الشريحة من الأدباء في الوطن العربي فتقول: "خلاصة مذهب هؤلاء الأدباء أنّ الغلط لا يضير الشاعر، فليخطئ، كما يشاء وليكف الناقد عن ملاحقته. وقد انعكس هذا المبدأ على النقد المعاصر كلة فأصبح الناقد العربي يقرأ قصيدة مشحونة بالأخطاء النحوية واللغوية فلا يشير إلى ذلك بحرف وإنما يمضي يتحدث عن موسيقى القصيدة والصور فيها ثم يكتفي وكأن القصيدة خالية من كل ضعف. و الواقع ... إن الغلط يضير الشاعر ويضير الفكر ويضير الجمال. وإنما يصدر هؤلاء النقاد، في دعوتهم إلى التسامح مع الخطأ ، عن جزيئية فكرية تفصل بين الصواب والجمال فصلاً غير مشروع، لأنهما متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الأخر." (13)

تعرف نازك الملائكة اللغة العربية بكيان مكتمل, مؤكدة على ضرورة التزام الشاعر بقوانين هذه اللغة فتقول : "ولغُتنا العربية كيان مكتمل فيه عمق وخفايا وامتدادات و له

هيبةٌ واستقلالٌ، وله قوانينٌ فيها سر شخصيتهِ اللغة ومنبعُ جمالها. و ليس لنا أن نستهين بهذه القوانينْ، لان اللغة لا تكشف لنا خفاياها وأبعادها إلا إذا نحن منحناها خشوعنا وأحببنا أسَسها حباً يخالطه نوعٌ من التقديسْ."(14)

تستمر نازك في هجومها للشائعات التي تطلقها التيارات في أوساط الأدب العربي والتي تدعو إلى نبذ العناية باللغة العربية الفصحى, لأنها تُضيق على الشاعرِ المعاصر معتقدين خطأً "أن المقاييس اللغُوية وألفاظَ اللغةِ قد استنفذتْ إمكانياتها الفكرية والعاطفيةِ حتى باتت تُعطّل عمليةَ الإبداعِ عند الشاعرِ المعاصر." (15) ترد نازك على هؤلاء فتقول: "والواقعُ أن هذه الفكرةَ ليست أكثرَ من وهمٍ ساقتْ إليه ظروفُ العصرِ الاجتماعيةِ , فأن لغتنا العربية بما فيها من قوانين القياس, ومعاني الصيغ, وأسلوبِ ترتيب العبارة, مازالت أرضاً بكراً مليئةً بالكنوز, وفي وسعها أن تنفجر بالعطر واللون والصور بين يَديْ الشاعر المعاصرِ على صورةٍ لم يكن الشاعرٌ العربيّ القديمُ يحلمُ بها ."(16) كذلك تهاجم نازك طائفةً من الشعراء الذين يستعملون الكلماتِ القاموسيةِ الغريبةِ في شعرِهم فتقول : "أن الكلمةَ القاموسيةَ تقتل الشعرَ قتلاً لأنها تقطعُ سبيلَ الصورِ وانبثاقِ الموسيقى فتوقفُنا عند كلمةٍ جامدةٍ لا تبوح حروفُها بشيء للقارئ إلا بعد أن يرْجعَ إلى المعجم وما يكاد القارئ يرجع إلى المعجمِ أو يقرأ حاشية الشاعر حتى يكون قد صحا من نشوة الانفعالِ بالقصيدةِ فيرتطم باللفظةِ القاموسيةِ وكأنها صخرةٌ باردةٌ تقف في وجهه ." (17)

لمزيد من المعلومات عن موقف نازك من الغلط في اللغة العربية الفصحى خصصنا مبحثا كاملا في نهاية البحث قبل خاتمة البحث بعنوان " الخطأ في اللغة العربية الفصحى إلى أين؟"

وفي المبحث التالي سندرس موقف الشاعرة نازك الملائكة السلبي من العامية وتأكيدها على ترك العامية والالتزام باللغة العربية الفصحى مهما كانت قواعدها صعبة.

4- بين اللغة العربية الفصحى والعامية:

الكلمة الفصيحة عند الشاعرة نازك هي الكلمة الراسخة في المعجم, أما الكلمة غير الموجودة في المعجم فلا تصنف بكونها فصيحة. وهي الكلمة التي ينفر منها المتحدث باللغة العربية الفصحى. وتعتقد نازك إن أسباب نفور العربي منها هو كونها معزولة عن التيارات

العاطفية التي تفيض بها البيئة العربية. وتقارن نازك العامية بالفصحى فالعامية تميل إلى التبسيط، خاصة في القواعد؛ وتعطي مثالا على ذلك. في العامية تختفي صيغة المثنى تقريباً، فالمتحدث في العامية يجد صعوبة في تطبيق قاعدة المثنى لذا يلتجأ إلى صيغة الجمع بدلا من صيغة المثنى. والمتحدث بالعامية ينقص عدد الضمائر(بخاصة الضمائر المنفصلة بصيغة المثنى : هما للغائب وأنتما للمخاطب)، وتختفي معظم أوزان الجمع، وصيغ الأفعال، وكذلك تختفي حركات الإعراب ... الخ. إن عدم الإهتمام بهذه القواعد يكون بالتأكيد على حساب القدرة على التعبير باللغة العربية الفصحى، وكذلك فإن العامية غير قادرة على التعبير عن الأمور الثقافية والفكرية والفلسفية؛ وعليه فإن المتحدث في هذه المواضيع عليه أن يعود إلى الفصحى ليمزجها بتراكيب العامية لتتشكل لغة تتوسط بين الفصحى والعامية غالبا ما تسمى بلغة المثقفين أو اللغة الوسطى.

وفي حديثها عن تطوير اللغات وعلاقته بتغير القواعد تؤكد نازك حقيقة إن لا تتبدلُ لأنها ترتبط بصميم ذهن الأمة, وإنما تتغير الحضارةُ الإنسانية بالنمو والتطويرِ فتنشأ أسماءٌ جديدةٌ فظواهرُ وثقافاتٌ تمنح اللغة مرونةً مقدرة لم تكن لها . وهنا أتساءل لماذا لم تتطور القاعدة مع تطور اللغة؟ فإذا كان جميع الناطقين بهذه اللغة قد اقروا صعوبة تطبيق قواعدها, لماذا لا نستطيع أن تتخلى عن بعض القواعد التي لا يستطيع الناطقون بها تطبيقها ؟ وهل فعلا إن قواعد اللغة العربية ومفرداتها لم تتطور؟ وإن كان هذا واقع علينا الاعتراف به, فأين نحن من مفردات كثيرة ذكرت في القران الكريم لم نعد نستعملها الآن في حياتنا؟ وهذا ما صنفته نازك بالأسماء الجديدة والظواهر. وهل طريقة الكتابة الحديثة باللغة العربية الفصحى هي نفس تلك الطريقة الموجودة في القران الكريم؟ الجواب بالطبع لا. اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية لا بد لها من التطور وإلا فكيف توصف بالكائن الحي, أو كما وصفتها نازك بالكيان الحي: (18)

> إن هذه الفئة من النقاد, من أنصار الفكرة دون التعبير, يشبهون اللغة بالآلة الجامدة تؤدي عملا رتيبا لا تخرج عنه, فهي ميتة لا نبض فيها. في حين أن اللغة, خلافا لما يتصورون, كيان حي تكمن فيه العواطف وخفايا النفس و ألوان الأشياء وعبير الحلم وطعم الوجود. وكلما غيرنا تركيب ألفاظ اللغة منحناها أفاقا جديدة, و أضفنا عليها من أسرار أرواحنا و نبض قلوبنا.
> والمقصود بهذا أن الإنسان لا يستطيع أن يستنبت الآلة أي شئ, أما اللغة

فان فيها سرا. إن لها جمالا يترقرق كما تترقرق حيوية الدم في الخدود وفيها حركة نابضة لا تفتر أبدا.

إن كانت اللغة العربية كالكائن الحي, فكيف لهذا الكائن الحي أن يبقى على قيد الحياة دون نمو أو تطور. الحقيقة التي لا يعترف بها الكثير من العرب هي إن اللغة العربية الفصحى في تطور مستمر إلا إن هذا التطور يمتاز ببطئه مقارنة إياه باللغات العالمية الأخرى كاللغة الانجليزية على سبيل المثال.

بعد ثورة عام 1919 في مصر، برزت مجموعة من الكتّاب أطلق عليها "الفرعونية المصرية"، "أو الإقليمية الضيقة". وقد تبنى الاستعمار البريطاني الفكرة ووقف إلى جانبها. وقد دعت هذه الحركة إلى "مصرنة أو تمصير" اللغة والفن والأدب، واستعمال العامية المصرية كوسط لهذه الأشكال الأدبية. ودعا أحمد لطفي السيد إلى ما أسماه "التسامح اللغوي". وكان الهدف منه إصلاح الفصحى باستعمال ألفاظ من العامية بالإضافة إلى الألفاظ المستعارة الأخرى في الكتابة، وقد نشر أفكاره في صحيفته الجريدة في سبع مقالات عام 1913. أما محمد تيمور وسلامة موسى فقد دَعَوا إلى النهوض بالعامية لتكون لغة قومية. وفي عام 1943 فاجأ عبدا لعزيز فهمي مجمع اللغة العربية بالقاهرة باقتراحه أن تكتب العربية بأحرف لاتينية؛ لكن الدعوة التي سبقه إليها سلامة موسى ماتت بموته. كما برزت جهود لويس عوض بحربه على الفصحى ودعوته لاستخدام العامية المصرية في مقدمة ديوانه "بلوتولاند " (1947) ونادى كذلك بتحطيم عمود الشعر، إذ أن الشعر برأيه قد مات بموت أحمد شوقي ميتة إلى الأبد. لم يستطع لويس عوض أن يبر لنفسه بوعده بأن لا يكتب إلا بالعامية وعاد بعد عام واحد عن الكتابة بالمصرية. (19)

في كتابه "الغربال" ينادى ميخائيل نعيمة بإباحة الألفاظ العاميةِ. وأن نتحكم في اللغة فننبذ لفظا ونقيم في مكانه لفظا جديدا. وتلخص نازك دعوة ميخائيل نعيمة القائمة على أمرين وهي: أولا, إن اللغة بنت المصادفة العمياء, نشأت ألفاظها بحسب أهواء الناطقين بها, وبعدها ثبتت في المعجم ودخلت اللغة: ثانيا,إن الصيغ العربية المختلفة خالية من المنطق وغير مرتبطة بنفسية الأمة العربية وليس بينها أي ترابط وعمق. ترد نازك على رأي ميخائيل بأن فكرتيه غير صحيحتين, فاللغة لم تأت وفق الأهواء: (20)

وإنما فتح العربي القديم عينيه فوجد أمامه مجتمعا يعج بلغة كاملة لم يضع هو صيغها, ولم تكن له يد في اختيار أقيستها, وهذا هو التعليل الواضح لما نراه من ترابط الصيغ العربية وإمكان تعليلنا لها تعليلا سايكولوجيا دقيقا. والواقع أن اللغة تقوم على أسس صلدة ثابتة من المنطق والفكر... وما من لفظة دخلت اللغة مصادفة, وإنما يمشي وراء الألفاظ كلها تيار من المنطق والترابط العجيب.

تحذر نازك الملائكة أنصار هذا المذهب بالنتائج الخطيرة التي سيقعون فيها وهي كما تراها الشاعرة: أولا, خسارة "التيارَ السايكولوجي الذي يمشي في الصيغ العربية ويجعلها حافلة بالمنطق والعمق, ويستحيلُ أمَرنا إلى الركاكةِ وعدم الانسجام " (21), ثانيا, "إنَّ الألفاظَ الجديدةَ التي نستعملُها تولد غريبة, معزولةً عن التصميم الأساسي للغتنا, وتخالفُ أقيستنا المترابطةَ العميقة, مما أورثنا إياه مئاتٌ متلاحقةٌ من الأجيال التي نطقتْ بالعربية طوال أماد شائعة من الزمان . وهذه الحالةُ لابد أن تربك الذهنَ القومي وتُنْزل بنفسيتنا القلق والفوضى". (22)

وفي مكان آخر توضح نازك موقفها من استخدام الشاعر نزار قباني الألفاظ العامية في شعره وتأثر الشعراء الشباب به, وتناقش أسباب عدم تشجيعها الشعراء الشباب استخدام الألفاظ العامية لأنها تعتقد إن استخدام الألفاظ العامية منفر للنفس العربية فتقول: "إن استعمال العامي في الشعر الفصيح منفر للنفس العربية لأنه ينقلنا إلى آفاقنا المتخلفة," (23) أما السبب الثاني فهو إن العامية ساذجة وضحلة" إن العامية لغة ساذجة تعكس العواطف البدائية وضحالة الفكر." (24) والعامية لا تسعف الشاعر بوصف مشاعره وصفا دقيقا " ومهما يكن من أمر, فإن هذه العامية, بما لها من ضيق أفق وفقر تعبيري لا تسعف الشاعر الذي يهتم بتصوير الحالات النفسية والعاطفية المختلفة تصويرا دقيقا." (25) أما السبب الثالث الذي تناقشه نازك في رفضها للعامية فهو إن العامية تسقط الترابط في اللغة العربية الفصحى وهذا الترابط هو العبقرية التي اتصفت بها لغتنا العربية, وتميزت بين اللغات.(26) تعطي نازك مثالا على هذا الترابط باختيار ثلاثة أفعال في اللغة العربية الفصحى فيها هذا

الترابط العجيب. وهي: رسف و رسب ورسخ حيث ترتبط حروف هذه الأفعال ارتباطا مذهلا ساعد هذا الارتباط الشعراء في استعمال القافية. وقد عبرت أصوات حروفها عن معان خفية ترتبط بصميم الحياة النفسية للعرب لا يجدها الشاعر في العامية: (27)

> إن الأفعال الثلاثة التي مثلنا بها تجعل من الممكن أن نستخلص إن اللغة الفصحى تعبر بأصوات حروفها عن معان خفية ترتبط بصميم الحياة النفسية للعرب. وهذا مساعد لعملية التعبير عند الشاعر في حين تجمد الألفاظ العامية بين يديه ولا تمده بشيء ذي قيمة. ... يضاف إلى ذلك ما رأينا من ارتباط الأفعال التي تتقارب حروفها ارتباطا خفيا مذهلا. و قد ثبت عبر العصور أن هذا الارتباط يساعد الشاعر خاصة في استعمال القافية, لأنه يهبه تنويعا كبيرا في المعنى دون أن يلجأ إلى تغيير القافية.

وللشاعرة العراقية نازك الملائكة وقفة أخرى مع القافية, سنتأملها في المبحث التالي. وهي وقفة قصيرة ليس لعدم أهميتها عند الشاعرة, بل لأنها قد كرست لها فصلين من كتابها " سايكولوجية الشعر": الفصل الثاني " القافية في الشعر العربي الحديث" , والفصل الثالث " سايكولوجية القافية".

5- القـافيــة الموحدة والقافية المتغيرة:

تعد نازك الملائكة القافية في الشعر من أهم جوانب العلاقة بين الشاعر واللغة لما لها من رنين وموسيقى عالية أحبها العربي القديم الذي كان يفضل أن يختتم البيت الشعري بقافية ونهايات الجمل النثرية بالسجع. وتفرق نازك بين القافية الموحدة التي تختلف عن القافية المتغيرة بصعوبتها وعدم منحها الشاعر حرية التعبير كما هو الحال في القافية المتغيرة: (28)

> ومن أهم جوانب العلاقة بين الشاعر واللغة, القافية واستعمالها. وقد حرص العربي القديم على القافية الموحدة لما لها من رنين وموسيقى عالية. ويرتبط هذا بحب الجاهليين لوضوح الألفاظ و قطعيتها ... وهو المسؤول عن حب العربي القديم للبيت الرنان المستقل استقلالا تاما عما قبله وبعده. ولذلك كرهوا ارتباط البيت الواحد بالبيت الذي يليه (التضمين) وعدوه عيبا من عيوب الشعر,

في صدد حديثها عن القافية, لا ترفض نازك القافية الموحدة لأنها تنفع في: (29)

الموضوعات التي يجب تقسيمها على كل أبيات القصيدة تقسيما يشد المعنى ويجمعه في تيار واحد لا صعود في و لا نزول. و إنما سيتسلل المعنى تسللا لينا و تساعد القافية على اختتام الموضوع بأخر بيت في القصيدة, خلافا للقافية المتغيرة, فان اختتامها فيه شئ من العسر بالنسبة للشاعر, لأن المعنى يلوح و كأنه لا يريد أن ينتهي بسبب تسلسل الفقرات, كل فقرة تنهض بجزء من المعنى جديد.

وفي تعليقه على الفصل الثالث المعنون"سايكولوجية القافية" في كتاب نازك الملائكة "سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى", يلخص أحمد فضل شبلول هذا الفصل بما يلي :(30)

وفي هذا الفصل رصدت نازك بعض محاولات الخروج على القافية الموحدة بدأت منذ العصر الجاهلي، حيث نُسب إلى امرئ القيس نوع من أنواع الموشح سموه "المسمط" كان فيه خروج مبكر على نظام القافية الموحدة. ويعد حديث المؤلفة عن سايكولوجية القافية من أهم فصول الكتاب حيث ترى أن تقفية القصيدة مطلب سايكولوجي فني ملح، وتتحدث في هذا عن تسعة عوامل مهمة تجعل من القافية تلك الضرورة التي لا سبيل إلى أن يستغني عنها الشعر.ومن أهم هذه العوامل: إن القافية تقوي بصيرة الشاعر تقوية عجيبة، وتفتح له الأبواب المغلقة الغامضة، وتقوده في دروب خلابة تموج بالحياة، و أنها تفتح كنوز المعاني الخفية، بل إنها تنبت الأفكار، وتغير اتجاه القصيدة إلى مجالات خصبة مفاجئة وأن القافية وسيلة أمان واستقرار لمن يقر القصيدة، و وجودها يُشعر بوجود نظام في ذهن الشاعر وبتنسيق الفكر لديه و وضوح الرؤية، وقوة التجربة.

أما موقف نازك من القافية فتلخصه في الفصل الثاني من"سايكولوجية الشعر", والذي تؤكد فيه عدم استعدادها للتخلي عن القافية. وتذكر أن الشاعر بدر شاكر السياب مثل موقفها.

لم تجد في ديوان شعره ولا شطر واحد بلا قافية. وهي في فصلها هذا عن القافية تلح على الشعراء عدم التخلي عنها : (31)

> و أما أنا فلم أتخل عن القافية حتى اليوم وإنما أكتب هذا الفصل لكي أحتضنها وأشعل حولها الثريات, وألح على الشعراء ألا يتخلوا عنها. ومثلي في هذا بدر شكر السياب يرحمه الله فها أنا أمسك بمجلد ديوانه فلا أجد له شطرا واحدا غير مقفى في شعره كله سواء ماكان منه حرا أو من الشطرين.

فنازك تؤكد وجود علاقة بين القافية وسيكولوجية القصيدة. وإن للقافية حياة كاملة وهي " ليست مجرد كلمات عابرة موحدة الروي وإنما هي حياة كاملة. إنها العصب الحي في الشطر, ولا ينبغي لنا مطلقا أن ندرسها معزولة عن المظاهر الشعرية الأخرى..."(32)

الغموض في لغة الشعر ولغة النثر:

وقبل اختتام محاضرتها أو الفصل الأول من كتابها "سايكولوجية الشعر", تشير نازك الملائكة إلى الاختلاف بين لغة الشعر ولغة النثر. وهي إن لغة الشعر " ينبغي أن تكون مضغوطة مركزة تحوي معاني كثيرة بأقل ما يمكن من الألفاظ, خلافا للنثر فهو فضفاض موسع ينطلق فيه الناثر دونما خوف أو حذر من الإطالة"(33) تستشهد نازك بأبيات ثلاث للشاعر محمود درويش يقول فيها:

أحبك,
إن ثلاثة أشياء لا تنتهي,
أنت, والحب, والموت

يستعمل الشاعر هنا أقل الكلمات للتعبير عن المعاني والعمق الفكري. يدرج محمود درويش ثلاثة عناصر لها عمق معين في فكره, وهي حسب الترتيب: الحبيبة, ثم الحب, ثم الموت الذي يستعمله الشاعر ببعدين: البعد الفلسفي, والبعد الواقعي الذي يعيشه المواطن الفلسطيني مادام الاحتلال الصهيوني مستمرا. هذا ما يدركه القارئ الذي يلاحق كلمة "الموت" في بقية شعر محمود درويش.

للشاعرة نازك الملائكة موقف محير أزاء موضوع الغموض في الشعر والنثر. فهي تارة تقف ضده وتارة أخرى لا تعترض على بعض منه. ولتعزيز موقفها من الغموض في الشعر تستشهد الشاعرة نازك بأقوال وأبيات من الشعراء والنقاد العرب القدامى والمحدثين الذين يؤيدون الغموض في الشعر مثل أبن الأثير في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" الذي يرد على إسحق الصابي الذي يرى إن "أفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه" (34) ويرد إبن الأثير غير مؤيد للصابي بقوله: "الألفاظ المفردة ينبغي أن تكون مفهومة سواء أكان الكلام نظما أو نثرا"(35) ولا يتفق إبن أبي الحديد في كتابه" الفلك الدائر على المثل السائر" مع رأي إبن الأثير, بل يؤيد رأي الصابي بقوله: "لأن المعاني إذا كثرت, وكانت الألفاظ تفي بالتعبير عنها أحتيج بالضرورة إلى أن يكون الشعر يتضمن ضروبا من الإشارة, وأنواعا من التنبيهات والإيماءات, فكان فيه غموض" (36) أما رأي نازك الملائكة فتلخصه بـ"أن الشعر لا بد له من مسحة من الغموض تجعل المعاني مثيرة للتعطش في نفس القارئ, فيحس وهو يقرأ أنه يلمس المعاني ولا يلمسها في الوقت نفسه, فالأفكار تزوغ ولا تثبت."(37) وهذا يعني إن نازك الملائكة تقف ضد الغريب من الألفاظ في الشعر إلا أنها لا تعترض على وجود مسحة من الغموض في الشعر للإثارة والمتعة. موقفها هذا ربما لا يقتنع به القارئ الذي اطلع على شعرها المبكر الملئ بالرموز الأسطورية التي يحتار من لا يملك ثقافة غربية كيف يفك رموزه. هي نفسها كانت تضطر لتقديم تعاريف بهذه الرموز في مقدمات دواوينها أو على صفحات منفردة, بخاصة ديوانها "شجرة القمر" الذي يحتاج عنوانه بحد ذاته إلى شرح وتوضيح.(38) وموقفها من الشعراء الشباب الذين يثقلون شعرهم بالرموز والألفاظ الغامضة هو تماما مثل موقف القراء التقليديين من شعرها الأسطوري في النصف الثاني من القرن الماضي: "غير أن طائفة من الشعراء الشبان قد أصبحوا اليوم يبالغون مبالغة شديدة في إضفاء الغموض على شعرهم حتى أصبح القراء المثقفون يشكون شكوى لا تنقطع من أنهم يقرأون قصائد كاملة لا يدركون لها معنى. (39)

تستمر نازك في هجومها للشائعات التي تطلقها التيارات في أوساط الأدب العربي والتي تدعو إلى نبذ العناية باللغة, لأنها تُضيق على الشاعرِ المعاصر معتقدين خطأً " أن المقاييس اللغُوية وألفاظَ اللغة قد استنفذتْ إمكانياتها الفكرية والعاطفيةِ حتى باتت تُعطّل عملية الإبداعِ عند الشاعر المعاصر الذي يحب أن ينطلق فكل ما يدعو إلى التمسك بقديم اللغة إنما يضع _

في رأي هؤلاء- القيود على شفتي الشاعر ويقص جناحيه."(40) ترد نازك على هؤلاء فتقول: "والواقعُ أن هذه الفكرةَ ليست أكثرَ من وهمٍ ساقتْ إليه ظروفُ العصرِ الاجتماعيةِ , فأن لغتنا العربية بما فيها من قوانين القياس, ومعاني الصيغ, وأسلوبِ ترتيب العبارة, مازالت أرضاً بكراً مليئةً بالكنوز, وفي وسعها أن تنفجر بالعطر واللون والصور بين يَديْ الشاعرِ المعاصرِ على صورةٍ لم يكن الشاعرٌ العربيّ القديمُ يحلمُ بها ." (41) وتهاجم نازك طائفةً من الشعراء الذين يستعملون الكلماتِ القاموسيةِ الغريبةِ في شعرِهم فتقول : "أن الكلمةَ القاموسيةَ تقتل الشعرَ قتلاً لأنها تقطعُ سبيلَ الصورِ وانبثاقِ الموسيقى فتوقفُنا عند كلمةٍ جامدةٍ لا تبوح حروفُها بشيء للقارئ إلا بعد أن يرْجعَ إلى المعجم . وما يكاد القارئ يرجع إلى المعجم أو يقرأ حاشية الشاعر حتى يكون قد صحا من نشوة الانفعالِ بالقصيدةِ فيرتطم باللفظةِ القاموسيةِ وكأنها صخرةٌ باردةٌ تقف في وجهه."(42)

هذا ما يخص الغموض في الشعر, أما الغموض في النثر, كما تعتقد نازك, فالموضوع مختلف تماما لأن النثر يحتاج إلى الوضوح. وهي برأيها هذا تتفق مع رأي إبن أبي الحديد الذي يقول: "خير الكتابة ما كان معناه جليا ويحمد فيها من وضوح المعنى ما لا يحمد في كثير من الشعر." (43)

وفي معرض حديثها عن الرموز في اللغة, فالشاعرة نازك لا تعارض استخدام الشاعر الرموز الأدبية و الدينية والسياسية و الأسطورية في الشعر. وهذا يبدو جليا في دواوينها الشعرية المبكرة وهي حسب تاريخ نشرها :عاشقة الليل (1947), شظايا ورماد (1949), قرارة الموجة (1957), شجرة القمر (1968), ويغير ألوانه البحر (1970) ومأساة الحياة وأغنية للإنسان (1977), و للصلاة والثورة(1978). على الرغم من أن إستخدام الرموز بشكل مكثف يزيد من غموض المعاني ودلالاتها الإيحائية, إلا إن نازك الملائكة لا تعتبر استخدام هذه الرموز يسبب مشكلة في استيعاب القارئ المثقف بالثقافة الغربية, بل على العكس تعدها " إحدى الوسائل التي يستعملها الشعراء في بث الحياة في الكلمة." (44) أما القارئ غير المثقف بالثقافة الغربية فموضوعه قد سهلت له نازك بتقديم قوائم تعريفية بهذه الرموز. وتستشهد نازك بأبيات شعرية من شعر محمود درويش واصفة هذه الأبيات بالجميلة و بالناجحة, مبررة إستخدامه لهذه الرموز (السلطان,: رمز الحكومة, و الريح: رمز الوطن

الضائع, فلسطين) ليصيح بالعدو الصهيوني إن فلسطين راسخة ثابتة حتى النهاية, لا يقهرها كائن من يكون: (45)

أخبروا السلطان:

أن الريح لا تجرحها ضربة سيف

أخبروا السلطان:

أن البرق لا يحبس في عود ذره

في نهاية محاضرتها أو مقالتها "الشاعر واللغة" تؤكد نازك تأييدها الرمزيةْ كإحدى الوسائلِ التي يستعملها الشعراءُ في بثّ الحياةِ في الكلمة. وتعطي إبعادا مبتكرةً للغةِ الشاعر, فتأخذ الرموز عندها في الشعر البعَد الرابعَ للكلمات , فالبعدُ الأول عندها هو المعنى المعُجمي , والبعُد الثاني هو المعنى المستعملُ في الحياةِ والبعُد الثالثُ للألفاظ وهو عبارة عن المعاني التي استعملها الشعراءُ عبر عصورِ الأدب . وبعد هذه الأبعاد الثلاثة تأتي الرموز الذكية الحية لتكون البعد الرابع للغة. (46)

7- الخطأ في اللغة العربية الفصحى إلى أين؟:

على الرغم من أن هذا المبحث يحتوي على معلومات لها علاقة مع نوقش في المبحثين الثالث والرابع, إلا إننا ارتأينا أن يكون هذا المبحث هو الأخير ليكون قريبا من الخاتمة التي أعطينا بعض الحلول والمقترحات للحفاظ على سلامة اللغة العربية من اللحن. اللغة العربية, حالها كحال بقية اللغات في العالم تتطور في مفرداتها وظواهرها ومرونتها وقدرتها على الأخذ والعطاء . وهذا يعني أنها تتأثر باللغات الأخرى وتؤثر بها, هذا ما تقره نازك الملائكة: (47)

> والواقع أن تطور اللغات الذي تقره طائفة من الأدباء لا يعني أن تتغير قواعدها. والقاعدة لا تتبدل لأنها كما قلنا ترتبط بصميم ذهن الأمة, وليست عرضا تافها يمكن نزعه والتخلص منه. وإنما تتغير الحضارة الإنسانية بالنمو والتطور فتنشأ أسماء جديدة وظواهر و ثقافات تمنح اللغة مرونة و قدرة لم تكن لها. و لقد نمت إمكانيات الاستعارة والمجاز والكناية نمواً عظيما على امتداد العصور لأن

كل إضافة في وسائل الحضارة تضيف جديدا إلى الفكر واللغة.

وتقارن نازك الخطأ في اللغة بوخز الإبرة وتشبهه بالبقعة الشوهاء :"إن الخطأ يؤلم. إن له وخزا كوخز الإبر لأنه قبيح أشبه ببقعة شوهاء على ثوب أبيض." المتحدث الذي لا يشعر بالألم عندما يخطأ هو كما تصفه نازك الملائكة هو "في مرتبة دنيئة من مراتب العقل ولذلك لا يوجعه الخطأ..."(48) فإذن الجاهل بقواعد اللغة هو الذي لا يشعر بالألم حين يخطأ "وكلما زاد علم الإنسان نما ذهنه ونضجت روحه وعمق من ثم نفوره من الخطأ. وإنما ننفر من الغلط والسقط عندما يكتمل إحساسنا بوجود الصواب, وجماله, وضرورته لنا." (49)

وهنا أود الإشارة إلى موقف نازك الملائكة من اللغة العربي كما أوضحته في كتابها التجزيئية في الوطن العربي" الذي نشر في الكتاب الذي أصدره المجلس الأعلى بجزأين "نازك الملائكة: الأعمال النثرية الكاملة, الجزء الثاني. في هذا الكتاب تكرس نازك الملائكة مبحثا كاملا بعنوان" موقفنا من اللغة العربية" توضح فيه نازك موقفها من الترجمات الركيكة إلى اللغة العربية . فهي تعتقد أن الاستعمار هو الذي شجعها بقصد إضعاف لغتنا العربية: (50)

> ولذلك حرصت بعض المؤسسات المشبوهة والجماعات المغرضة على أن تعهد بترجمات أمهات الكتب الغربية إلى كتاب ضعاف غير متمكنين من العربية, فصاغوا تلك الكتب العظيمة صياغة حرفية ركيكة, كان لها أثران سيئان في حياتنا الفكرية (الأول) أن كثرة قراء هذه الترجمات قد نجحت في تحويل الركاكة إلى مذهب في التعبير, فأدى ذلك إلى إضعاف المستوى العام للغة. و (الثاني) أن هذه الترجمة الركيكة حرمتنا فرصة تكتسب فيها لغتنا تعبيرات جديدة لها الفصاحة و الطرافة معا. لأن الكتاب المترجم إذا صيغ بعربية سليمة لها خصائص لغتنا أفاد اللغة وأغناها. أما إذا ترجم حرفيا فإنه يخسرنا كما نخسره.

نتفق مع نازك الملائكة في موقفها من الترجمة الحرفية وآثارها السلبية على النص المترجم إلى اللغة العربية فقط عندما يعتمدها المترجم مائة بالمائة, لأن في تصرفه هذا عدم احترام لتراكيب اللغة العربية وقواعدها التي غالبا ما تختلف عن تركيب وقواعد اللغات الأخرى. نقول غالبا لأن في بعض الأحيان عندما تتطابق التراكيب اللغوية والقواعد في اللغة المصدر واللغة الهدف لا توجد أية آثار سلبية على اللغة الهدف. وفي أحيان أخرى, يكون

النص المترجم ترجمة حرفية أبلغ وأقوى تأثيرا من النص الأصلي, فضلا عن دقة الترجمة بسبب التقارب الكبير بين التفاصيل الدقيقة للنصين.

أما موقفها من تعمد الاستعمار باختيار مترجمين غير أكفاء لإضعاف اللغة العربية فلا نتفق معها. فما الذي يجنيه المستعمر عندما يتعمد في إضعاف اللغة الهدف في الترجمة. إن ترجمة فكر المستعمر وحضارته ترجمة ركيكة لا تفيده على الإطلاق لأن الترجمة الركيكة تقضي على جمالية تراثه وحضارته ولا تنقله إلى اللغات والحضارات الأخرى بشكل سليم تستطيع هذه الحضارات من خلالها التعرف على حضارة المستعمر والتأثر بها وهو الهدف المقصود لدى المستعمر. الترجمة السليمة هو هدف المستعمر , هذا ليس دفاعا بل حقيقة يجب علينا إدراكها ولا تأخذنا مواقفنا العاطفية تجاه لغتنا العربية إلى التسرع في توجيه الاتهامات إلى المتحدثين باللغة المصدر. ربما الصدفة جاءت بهؤلاء المترجمين غير الأكفاء أو ظروف العمل من ضغط كبير وضيق في الوقت يؤدي إلى التسرع في إنهاء الأعمال المترجمة, فضلا عن المستويات العلمية والثقافية للمترجمين المختارين لتلك الترجمات.

تعطي نازك الملائكة مثالا على هذه الترجمات الركيكة. وهو ترجمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد :(51)

> فقد ترجم هذا الكتاب الذي يقدسه المسلم والمسيحي المسلم والمسيحي معا, ترجمة ركيكة لا يقبلها الذوق السليم, وقد ساهمت هذه الترجمة في إضعاف الذوق الأدبي العام وأشاعت فينا العجمة, وإخواننا المسيحيون العرب ذوو حظ كبير من البلاغة العربية وقد نبغ منهم كتاب كبار وباحثون وشعراء تغنوا بلغة القرآن واعتزوا بها أشد اعتزاز فلا يصح لهم السكوت على مثل هذه الترجمة التي تشوه كتابهم ولغتهم معا, وتحرمنا قراءة سيرة المسيح والانتفاع بما لها من روحية وجمال.

وهكذا تحمل نازك الغزاة وكل من تعاون معهم في ترجمة أعمالهم الفكرية إلى اللغة العربية ترجمة ركيكة مسئولية إضعاف لغتنا العربية. وتعدد خمس من هذه التبعات: (52)

1-كثرة الاصطلاحات التي يصر المترجمون على إبقاء صيغها الغربية مثل قولهم فولكلور وأيديولوجية وأكاديمية وكلاسيك...الخ. وتحمل نازك الحكومات العربية التي سمحت بدخول

مثل هذه المصطلحات إلى وسائل الإعلام ليستعملها الناس بدون مرادف عربي كان بإمكان وسائل الإعلام أن توفره لهم.

2-استعمال قواعد النحو اللاتيني التي تعد في مقاييسنا النحوية خطأ فادح. مثل تعدد المضاف إلى مضاف إليه واحد وهو ما يسمى بلغة (قطع الله يد ورجل من قالها)..الخ.

3-استعمال أساليب بناء العبارة مثل تأخير الفعل في الجملة فلا يرد إلا بعد أن يتقدم عليه سطران كاملان من الظروف والمجرورات والمعطوفات. وهذا مخالف لما تعرف لغتنا حيث يتقدم الفعل على معمولاته.

4-استعمال وسائل البلاغة اللاتينية بدلا من العربية كقولهم " السوق السوداء, والحرب الباردة...الخ.

5-تقليد العبارة الغربية الحديثة في تعقيدها وغموضها . وذلك بالإكثار من الجمل الاعتراضية, والفصل بين المبتدأ والخبر بكلمات كثيرة تربك القارئ. وكذلك استعمال العبارات الطويلة طولا فادحا.

وأخيرا تعترف نازك في نهاية المبحث إن الترجمات الركيكة ليست جميعا تصدر بنية سيئة لتدمير لغتنا العربية فبعضها تأتي نتيجة الجهل باللغة والتراث:" ومن الحق أن نشير كذلك إلى أن الترجمات الضعيفة في أسواقنا لا تصدر كلها عن سوء النية وإنما ضعف بعضها نتيجة الجهل باللغة والتراث."(53) وتختتم نازك مبحثها "موقفنا من اللغة العربية" بتنبيه المثقفين العرب بوجود دعوات مشبوهة هدفها تشويه العروبة ولغتها العربية: "فمن هذه الدعوات: الدعوة إلى نبذ الحرف العربي واتخاذ اللاتيني في مكانه, والدعوة إلى استعمال اللهجات العامية في الإذاعة وفي أدب القصة والمسرح," (54) التي تصدى لها الحريصون على اللغة العربية. وآخر جملة تنهي نازك مبحثها هذا التأكيد على الجهة المستفيدة من الفصل بين العربي وتراثه هم الغزاة. نحن كذلك نؤيد نازك فيما تقول في أن هدف المستعمر دوما هو الفصل بين العربي وتراثه, إلا إن هذا الهدف لا علاقة له بالتشجيع على الترجمات الركيكة لتدمير اللغة العربية. لأنه إن فعل ذلك فهذا يعني عدم نقل حضارته بالتأثير والقوة التي يسعى المستعمر دائما لها.

الخاتمة:

ونحن نستمع إلى محاضرة نازك الملائكة " الشاعر واللغة " وجدنا أن اللغة العربية ليست سهلةً على لسانها كما توقعنا. فقد وقعت في أخطاء تجاوزت السبعة وقامت بتصحيح أغلبها بنفسها ومرت بعض الأخطاء دون تصحيح . هذه نازك الملائكة التي كانت تحارب بشدة كل من ينطق العربية بشكل غير سليم. وهي التي قضت حياتها تدرس وتدرس اللغة العربية الفصحى وتكتب الشعر بالفصحى. لكنها لا تتكلم الفصحى مائة بالمائة مع الآخرين خارج نطاق التدريس. فعندما قابلتها لم تتحدث معي بالفصحى, بل كانت تشكل ما بين الفصحى والعامية , بلغة غالبا ما تسمى بلغة المثقفين أو اللغة الوسطى. وبعد هذا يدور ا لسؤال الآتي في ذهني أين يكمن الخلل ؟ هل يكمن الخلل فينا أم في لغتنا العربية ,أعني صعوبة قواعدها ؟ إن كان المختصون بها يقعون بالخطأ كما يقع غيُرهم فما الحل إذن؟ الحل بيدنا نحن المتحدثون باللغة العربية حكومة وشعبا إن التزمنا بما اقترحته الشاعرة نازك الملائكة في كتابها " التجزيئية في الوطن العربي" لأجل الحفاظ على سلامة للغة العربية:(55)

1- تعديل المناهج الدراسية باتجاه التركيز على تدريس اللغة العربية والقرآن الكريم في جميع المراحل.

2-إنشاء مؤسسة عربية كبيرة تشرف على الترجمة وتنسق جهود المترجمين العرب.

3-إنشاء قانون جديد للطباعة والنشر لجعل الصحافة والإنتاج في خدمة الأمة العربية.

4-تحديد مجال الإذاعات وخاصة المرئية منها, ووضع فلسفة عامة لمناهجها تبنى فيها المواطن العربي وتهذب روحه وترفع مستواه الفكري والفني.

5-إقامة جمعية موحدة للأدباء العرب لها فروع في كل قطر, تعمل في نشر التراث العربي وكشف جماله وعمقه للجيل الناشئ.

ونحن بدورنا لنا مقترحاتنا التي بالإمكان إضافتها إلى المقترحات التي قدمتها نازك الملائكة, وهي:

1- ممارسة اللغة العربية الفصحى منذ الصغر فعلى الآباء المثقفين توفير كل ما يستلزم من أمور لها علاقة بممارسة اللغة العربية الفصحى من تشجيع أبناءهم التحدث بها في البيت

والشارع والمدرسة بشجاعة وعدم الاهتمام بسخرية الجهلة من الشعب الذين لا يجيدون التحدث بالفصحى.

2-إصدار قانون من قبل مديرية التربية يجبر التدريسيين في الجامعات والمعلمين في المدارس بالتحدث باللغة الفصحى في داخل صفوفهم وخارجها.

3- الإكثار من الدورات التي تدرس اللغة العربية بمستويات متقدمة, وإجبار المعلمين والطلبة على الانضمام إليها بخاصة أثناء العطل الصيفية.

4- إقامة مهرجانات شعر باللغة العربية الفصحى والتقليل من مهرجانات الشعر العامي.

5- عدم السماح لمقدمي البرامج والنشاطات الثقافية استخدام اللغة الوسطى التي تجمع بين الفصحى والعامية.

6- تشكيل لجان مراقبة تحاسب استخدام العبارات الأجنبية في الإعلانات وتقوم بتدقيق المفردات والتراكيب اللغوية للعبارات في هذه الإعلانات.

الهوامش :

1 – أنظر الموسوعة الحرة وكيبيديا؛
إنظر أيضا David Guralink (ed.) Webster's New World Dictionary, New College Edition, New York, New World Dictionaries: Simon and Sehuster, 1995.

2-htt://www.kenanaonlineLusersLalaaqandeelLposts/422900
علاء قنديل – بحث في اللغة:مكانتها, مكانة الفصحى في القران الكريم.

3- المصدر نفسه.

4-المصدر نفسه.

5- أنظر: نازك الملائكة,"سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى", بغداد, وزارة الثقافة والإعلام, دار الشؤون الثقافية العامة, 1993. تعد نازك الملائكة هذا الكتاب بأهمية كتابها "قضايا الشعر المعاصر" لأنها أوضحت فيه مالم يسعفها الوقت في إدراجه ضمن كتابها الأول عن الشعر المعاصر.

6- المصدر نفسه, ص9

7- المصدر نفسه.

8-المصدر نفسه: ص9-10.

9- المصدر نفسه: ص10.

10- أنظر: نازك الملائكة, " للصلاة والثورة" (ديوان شعر), دار العلم للملايين, 1987, ص:98.

11- المصدر السابق: ص10،11، 17،27، 28.

12- المصدر نفسه: ص12.

13- المصدر نفسه: ص 13.

14- المصدر نفسه: ص12.

15- المصدر نفسه: ص27.

16- المصدر نفسه: ص27-28.

17- المصدر نفسه:ص 30.

18- المصدر نفسه: ص17.

19- أنظر عزيز المغربي, "مراحل إزدواجية اللغة العربية في الدول العربية والمغرب", منتديات الأستاذ:
www.profvb.com/vb/t134436.html

20- المصدرالسابق: ص22.
وتشير نازك في الهامش إلى حقيقة أن ميخائيل نعيمة قد ألف كتابه الغربال في أيام شبابه , إلا إنه تراجع عن كثير من آرائه العنيفة التي وردت في هذا الكتاب, وكان ذلك في عام 1956, عندما وقف في مؤتمر ألأدباء العرب ببلودان مصرحا بتراجعه.

21- المصدر نفسه: ص23.

22- المصدر نفسه.

23- المصدر نفسه: ص18.

24- المصدر نفسه.

25- المصدر نفسه: ص19.

26- المصدر نفسه: ص 19-20.

27- المصدر نفسه: ص21.

28- المصدر نفسه: ص32.

29- المصدر نفسه:ص34.

30- أنظر أحمد فضل شبلول "سايكولوجية الشعر عند نازك الملائكة"- مركز الصداقة الثقافي الألكتروني .

31-أنظر نازك الملائكة, "سايكولوجية الشعر","القافية في الشعر العربي الحديث" (ف 2) : ص53.

32- المصدر نفسه: ص21.

33- المصدر نفسه: ص 34.

34- أنظر: ضياء الدين إبن الأثير ," المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر", قدمه وحققه د. أحمد الحوفي ود. المصدر نفسه بدوي طبانة, دار نهضة مصر للطباعة والنشر, القاهرة, ص 7 , نقلا عن نازك الملائكة في كتابها "سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى", ص32, كما أشارت لهذا المصدر في هامش "الشاعر واللغة", ص37.

35- المصدر السابق: ص32.

36- أنظر : أبن أبي الحديد, "الفلك الدائر",القاهرة, 305, نقلا عن نازك الملائكة في كتابها "سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى", ص32, في هامش "الشاعر والغة", ص37.

37- المصدر نفسه.

38- -أنظر نازك الملائكة " شجرة القمر" (ديوان شعر), بيروت, 1970.

39- المصدر السابق: ص32.

40- المصدر نفسه: ص27.

41- المصدر نفسه: ص27-28.

42- المصدر نفسه: ص 30.

43- المصدر نفسه: ص33.

44- المصدر نفسه: ص 35.

45-المصدر نفسه.

46-المصدر نفسه: ص36.

47- ا لمصدر نفسه: ص 14.

48-المصدر نفسه.

49- المصدر نفسه.

50-أنظر:المجلس الأعلى,"نازك الملائكة: الأعمال النثرية الكاملة",ج2, 2002: ص568.

51- المصدر نفسه.

52- المصدر نفسه: ص 569-570.

53- المصدر نفسه: ص 570.

54- المصدر نفسه.

55- المصدر نفسه.

كما يقول أحمد فضل شبلول في نبذة عن كتاب نازك الملائكة "سايكولوجية الشعر" الذي نشره في الموقع الالكتروني "مركز الصداقة الثقافي", حيث يؤكد على أهمية هذا الكتاب الذي نشرت أول طبعه له في القاهرة , عام 1999 , والذي تعده مؤلفته نازك الملائكة " الجزء الثاني من كتابها "قضايا الشعر المعاصر" لأنها ذكرت فيه مالم تذكره في هذا الكتاب: (54)

عن الشاعر واللغة ترى نازك أن الشاعر لابد أن يوثق صلته باللغة وقوانينها بحيث تصبح ملكة اللغة فطرة في نفسه يغرف منها بلا انتهاء، فيبدع الصور والموسيقى ويأتي بأروع الأنغام دون أن يخرج على أسس اللغة وقواعدها. وبهذا ترد نازك على شائعة انتشرت بين أدباء الوطن العربي . وقت تأليف الكتاب وأعتقد أنها مازالت منتشرة حتى الآن . مضمونها أن الغلط في قواعد النحو واللغة مباح كل الإباحة في الشعر .